الباب الثامن

السعادة تولد من المال!!

فصل أول : هل الغني هو السعيد حقاً ؟!

فصل ثـانٍ : السعادة في القرآن الكريم .

فصل ثالث : حقيقة السعادة

بحث أول : السعادة في خدمة الناس!

بحث ثـانٍ : السعادة تأتي بالبذل والإنفاق!!

بحث ثالث : السعادة تتحقق بثلاث مراتب!!

الفصل الأول

هل الغني هو السعيد حقاً ؟!

روى الإمام البخاري بسنده المتصل إلى سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أُعطي رضي ، وإن لم يُعط لم يرض**» .

لكن الظاهر الذي تراه العين أن الغني الذي يملك الدينار والدرهم والأثاث واللباس والزينة ، تراه غير هالك ، فكيف يقول الرسول ذلك ؟

الهلاك ليس معناه الموت ، وليس معناه المغامرة ومخالفة القوانين ومن ثمّ القبض عليه والإعدام ، وليس معناه الجوع حتى الموت .

لكن للهلاك أنواع كثيرة ، حيث أن كل إنسان سيهلك ، لكن الهدف هنا : أن تكون الحياة من بداياتها وإلى نهايتها موصولة مع نعيم الجنة ، لا أن تكون موصولة بغصص النار بعد غصص القبر وغصص الحساب والحشر .

ذاك ما يقصده المصطفى صلوات الله عليه بكلمة «**هلك**» : إنه يتقلّب من غصص في الدنيا نتيجة خوفه على المال وصفقات التجارة واحتمالات الخسائر والسرقات ، لينتقل إلى غصص أشد وأشد ، إنه يرى بعينيه وهو على فراش الموت كيف يتكالب أقرب الناس إليه ، وأصدقاؤه وأحبابه وحتى أولاده وزوجته ـ عليه ـ ، يراهم وهم ينتظرون الساعة التي تخرج فيها روحه ، بل قد يجدهم يرفعون الأكف إلى السماء كي تعجّل في ذلك

لينقضوا على ما جمع من مال ، فيتقاسمونه فيما بينهم مما يؤدي في نفسه إلى غصّة على ذلك!!

وهل الهلاك إلاّ ذلك الانتقال من غصّة إلى أكبر منها إلى أكبر منهما ؟ إن الغني الذي لا يسير على شرع الله وسنة رسول الله ﷺ تراه في كل يوم يحلم بأن يصير أغنى من أقرانه ، وإذا وصل إلى تلك الدرجة عاد ليحلم بأنه سيصير أغنى من أولئك الذين هم أكثر غنى منه ، وهكذا يحلم بأن يكون عنده مصنع ضخم وسيارات وعقارات وخدم وحشم ونساء . . ويحلم بأنه سيصير (مليونيراً) فإذا صار ، حلم بأنه سيصير (ملياردياً)!! لكن في واقع الأمر ـ وهذا ليس كلاماً استهلاكياً نظرياً ـ تسلمه أحلامه إلى نكدٍ وتعبٍ وإرهاق ، وفي الغد يمارس أتعاباً أكثر وأكثر.

والحلم لذيذٌ خاصةً إذا تصوّر الإنسان أن حلمه سيثمر ويتحقق ، وعند المساء يهوي برأسه الثقيل على وسادته ليرقد ويرتاح من عناء النهار ، فتأتيه الأفكار وكأنها مطارق من حديد ، فيتقلّب ساعات وساعات في الفراش ويطير النوم من عينيه فينقضّ على علبة حبوب النوم ليتعاطى منها الواحدة تلو الأخرى كي يستطيع النوم ولو لساعات قليلة!!

إذن : أين هي السعادة التي يعيشها هذا الإنسان الغني ؟!

وهذا الوضع المتكرر يسلمه إلى أمراض كثيرة متنوعة تعشش في كيانه ، مما يلجئه ذلك إلى زيارات متكررة إلى الأطباء وإلى المخابر للتحليل وإلى أماكن التصوير لتكون النتيجة : ضغط في الدم ، تقلصّات في الشرايين ارتفاع في الكولسترول ، زيادة في السكر ، تشحّم في الكبد !!

فيدخل في غصّة أخرى أشد وأشد مما مضى.

لذلك لا تجد هؤلاء يعيشون السعادة ، إنما يعيشون في أحلام

السعادة ، في ظاهر السعادة ، صحيحٌ أن لقاءاتهم لا تتمّ إلا تحت أضواءٍ حمراء أو خضراء ، على شواطئ البحار والمحيطات وفي المصايف والمنتجعات.

لذلك ومن بعيد يخيّل إلينا أنهم يعيشون في سعادة لا مثيل لها ، ولو اقتربنا إلى واقعهم ، ولو سألنا الواحد منهم وكان جوابه صريحاً ـ لا مكابراً ـ لرأينا حقيقة : أنهم يعيشون في أحلام السعادة ولا يعيشون حقيقتها. . . لقد عرف العلماء السعادة فقالوا : إنها السرور التي ترفرف بين جوانحك تماماً كذلك السرور الصافي عن الشوائب الذي تتذكره الآن وتعيش في ظلاله أيام كنت طفلاً ، الآن وأنت رجل تجاوز عمرك مثلاً الأربعين تذكر كيف كنت طفلاً ، كيف كنت تنتظر العيد فلا تنام ليلته وأنت سعيد ومسرور وعند الصباح الباكر تنطلق مع الأطفال الآخرين ، وكلكم يلبس الثياب الجديدة. . والواحد يسير على الأرض وكأنه لا يسير عليها ، لا يحسّ بأيام العيد كيف تنقضي مسرعة من شدة الفرح ، إنك تشعر باللذة وهي تفيض من قلبك الآن وأنت تتذكرّ تلك الأيام ، لكن هل نستطيع أن نرى مثل ذلك عند الأغنياء ؟!

ومن جانب آخر تجد النبي صلوات الله عليه وقد عبّر عن تلك الشقاوة بكلمة «**هلك**» أو «**تعس**» ليقول في حديثٍ آخر : «**إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب**» .

إذاً الذي لا يُعطى الإيمان فهو ممن يبغضه الله تعالى ولا يحبه ، وهل يسعد في دنياه وآخرته من يبغضه الله ؟!

إن الله تعالى إذا تجلّى على عبد تجليات مقت وغضب فلن يسعد العبد أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولو تراءى لنا أنه سعيد ولديه أموال قارون!!

ثم يعبّر البيان النبوي بكلمة «عبد» ليكون بذلك تعبير واضح وصريح

عن الذل والهوان والعبودية التي يعيشها الإنسان اللاهث وراء الدنيا والدينار .

والغريب في الأمر أنك عندما تدعو أمثال هؤلاء لأن يحنوا رؤوسهم للخالق المنعم ويسجدوا سجود خضوع وشكر واعتراف بما أغدق عليهم ، ترى الواحد منهم يرفع رأسه ويتكبر ويتجبر ، ويعبّر عن ذلك بأنه عزيز النفس لا يذلها لأحد ، يرفضون أن يكونوا عبيداً لله لكنهم في واقعهم عبيد للدنيا ، غارقون في البحث عن الازدياد منها ، موغلون في التقلّب فيها ، مضحّون بالغالي والنفيس في سبيلها ، فهم عبيداً أذلاّء لها ، فأيهما أفضل ؟ أن يكون الإنسان عبداً لله أم أن يكون عبداً للدنيا ؟!

وما أجمل تحليل أحد العلماء المخلصين لهذا الأمر بقوله :

الناس يجهلون معنى الفقر ، ويظنون أن الغني هو من يجمع الأموال ، بينما الفقير هو الذي لا يحصّل ذلك !!

لكن حقيقة الأمر هي : أن الفقير هو من يلهث وراء الشيء وهو يمدّ يده إليه ، بينما الغني : هو من يترفع عن الشيء ويعلن دائماً عن عدم حاجته إليه .

وبناءً على ذلك : فمن يملك المليارات ثم نراه يلهث وراء المزيد ، طارقاً جميع الأبواب ، سالكاً كل السّبل ، مضحّياً في سبيل ذلك بكل شيء لا يبالي حتى بأكله وشربه وراحة باله وطمأنينة نفسه في سبيل المزيد.

هل نقول عنه إنه غني ؟

أبداً ، إنه كالفقير الشحاذ الذي نراه في الشوراع يفتح يديه للناس لعلهم يرمون إليه ببعض الأكل أو النقود القليلة.

ولو حلّل كل واحد منا ذلك ودقق النظر فيه لوجد فعلاً أنه لا فرق بين اللاهث وراء جمع الأموال من هنا وهناك وبين الشحاذ المتسكّع في

الشوارع!!! صحيح أن الشحّاذ لا يملك شيئاً ، وإنما يمارس ذلك بسبب القلّة ، لكن الغني يملك ويملك ، إنما يمارس الدور نفسه في سبيل الجمع أكثر وأكثر.

ورحم الله القائل :

غنيتُ بلا مالٍ عن الناس كلهم وليس الغنى إلا عن الشيء ، لا به!!

أن تُثبت أنك لست بحاجة إلى المال ، إلى الدنيا ، إلى اللهث وراءها إذاً أنت غني ، أنت غني عنها ، وهذا هو معنى الغنى .

أما عندما تُثبت أنك بحاجة إليها ، بحاجة إلى المزيد منها ، فأنت بذلك أفقر الورى ولو كان في صناديقك الأموال الكثيرة.

وهنا يبرز معنى القول المشهور : الغنى غنى النفس .

هذه الحقيقة سنفصلها أكثر عند حديثنا عن حقيقة السعادة في فصول قادمة لنرى هل الغني هو السعيد في الدنيا ؟ وهل هو سعيد في الآخرة ؟ هل الإسلام يحتفظ بفلسفة خاصة للسعادة غير ما يتصوره الآخرون ؟

* * *

الفصل الثاني

السعادة في القرآن الكريم

لو استعرضنا آيات القرآن الكريم لم نجد الحديث عن السعادة أو أحد مشتقات الكلمة إلاّ في سورة هود فقط!!

وذلك بعد أن تحدث بيان الله تعالى عن الأقوام السابقة مع أنبياء الله ، ثم جاء الحديث عن إبادة الظالمين وعذابه لهم في الدنيا ، ثم جاء الحديث عن يوم القيامة فقال الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٣ـ١٠٥] .

إلى أن قال : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨] .

لكن في القرآن الكريم إشارات ذات مدلول واضح وصريح ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٤ـ١٥] .

لقد ساق البيان القرآني هنا السعادة الظاهرية وجمعها بقوله ﴿ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ وسبّقها بكلمة ﴿زُين﴾ أي حُسّن إليهم وحُبّب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهنّ أشد ، والإلتذاذ بهن أكثر ، وفي الحديث الشريف :

«ما تركت بعدي فتنةً أضرّ على الرجال من النساء»[1] .

ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿والبنين﴾ وإنما ثنى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقرّة العيون كما قال الشاعر :

وإنمـــا أولادنـــا بيننـــا أكبـادنـا تمشـي علـى الأرض
لـو هبّـت الـريـح علـى بعضهـم لامتنعـتْ عينـي عـن الغمـض

وقُدِّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله .

﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ أي الأموال المكدسة الكثيرة من الذهب والفضة ، وإنما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات ، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله ، والذهب والفضة أصل التعامل ، ولذا خُصّا بالذكر .

﴿والخيل المسوّمة﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿والأنعام﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة ﴿والحرث﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم . ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع والثواب .

﴿قل أؤنبئكم بخيرٍ من ذلكم﴾ أي قل يا محمد أأخبركم بخيرٍ مما زُين

---

(١) رواه البخاري.

للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ؟ والاستفهام للتقرير ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي للمتقين يوم القيامة جنات فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿وأزواج مطهرة﴾ أي منزهة عن الدنس والخبث ، الحسي والمعني ﴿ورضوان من الله﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوان من الله ، وأيّ رضوان ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء[1] .

إن القرآن الكريم صور لنا كل ما نراه من شهوات ، وكل ما تتخيّله عيوننا ونظنه هو السعادة ، بأن ذلك ليس إلا وهماً بوهم!!

فالسعادة المطلوبة في القرآن هي تلك التي تنبع من الداخل فتترقرق وتصفو لا التي تلمع وتبرق وتغري ، ولن يكون الإنسان سعيداً بواسطة الأشياء الخارجية من مال ، إنما السعيد من نبعت السعادة من داخله . . .

من هنا كان اهتمام الإسلام بالروح : تزكيةً وصقلاً وتهذيباً ، حتى تصبح حرّة لا قيود عليها ، وعندها يتحرر الإنسان من كل ما حوله من مكبلّات لينطلق إلى الله خاضعاً له ذليلاً أمامه معلناً عبوديته الكاملة في محرابه ، طالباً منه المدد والعون والرزق ، وهذه هي قمة التحرر . وهذه هي السعادة الحقّة ، أما أولئك الذين يرون السعادة في جمع الشهوات بأنواعها ، فهم عبيد مقيدون بها لاهثون وراءها ، لذلك فهي سعادة زائفة .

لذلك جاء القرآن بكلمة ﴿زُين﴾ فقالوا من هو المزيّن للشهوات ؟ فقال بعضهم هو الشيطان ودليلهم على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [النمل : ٢٤] وتزيين الشيطان : أي وسوسته وتحسينه الميل إليها .

---

(١) للتوسع يراجع صفوة التفاسير للصابوني: ١/١٨٩-١٩٠.

وقال آخرون : المزّين هو الله والدليل على ذلك قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف : ٧] وتزيين الله للإبتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى ، وهو ظاهر قول الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ : اللهم لا صبر لنا على ما زيّنت لنا إلا بك.

وكما عودنا القرآن بأساليبه البلاغية ، جاء هنا ـ بعد سرده للشهوات ـ بنمط جذّاب فيه تشويق لنبأ عجيب تتطلع إليه النفس وتحرص عليه ، فقال مباشرة : ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ إذاً هناك ما هو خير من هذه الشهوات التي نظنها أنها السعادة ؟ نعم إنها السعادة الحقيقية التي سينالها المتقون .

كذلك عندما وضع كلمة ﴿ذلكم﴾ ليدلّ القرآن الكريم على ضآلة حجم الماديات بكل أنواعها أمام السعادة النابعة من تقوى الله ورضاه في الدنيا والآخرة[1] .

* * *

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتاب: تحفة الحقائق في المواعظ والرقائق للمؤلف.

الفصل الثالث

حقيقة السعادة

تكمن السعادة في عدّة نقاط ، نتحدث عن كل منها باختصار وهي :

١ـ السعادة في خدمة الناس :

إن اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وقضاء حوائج الناس ، وإدخال السرور عليهم ، والمشي في حوائجهم توصل إلى درجة عالية في ميزان الله ، وبالتالي تحقيق السعادة وذلك بنيل رضا الله تعالى.

وقد حضّ الإسلام على ذلك في مواطن متعددة ، من ذلك قول الله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

وقول الحبيب الأعظم صلوات الله عليه : «**خير الناس أنفعهم للناس**» .

وقوله أيضاً : «**الخلق كلهم عيال الله ، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله**»[١] .

وقوله أيضاً : «**من سعى لأخيه المسلم في حاجة ، فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر ، وكتب له براءتين براءة من النار وبراءة من النفاق**» .

---

(١) رواه البزار، والطبراني.

وقوله أيضاً : «من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه ، فإن رجح وإلا شفعت له»[1] .

وقوله أيضاً فيما رواه أنس رضي الله عنه : «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفّر عنه سبعين سيئة ، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب»[2] وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة : واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقي في الدرجات» .

ولنقف أمام هذا الحوار الرائع بين سائل ، وبين رسول الله ﷺ ، والذي ينقل لنا هذه الصورة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

السائل : أي الناس أحب إليك يارسول الله ؟

الرسول : «أنفع الناس للناس» .

السائل : أي الأعمال أفضل ؟

الرسول : «إدخال السرور على المؤمن» .

السائل : وما سرور المؤمن ؟

الرسول : «إشباع جوعته ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه ، ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ، ومن كف غضبه ستر الله عورته ، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل»[3] .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق.

(٣) للتوسع في ذلك يراجع: وفيات الأعيان: ٢/ ٤٥٩، وطبقات الشافعية للسبكي: ٤/ ٢٠٥، وعيون الأخبار لابن قتيبة: ٣/ ١٢١.

أرأيت إلى هذا السرور الذي ينتاب المؤمن ؟ أليس هو السعادة الحقّة والذي يأتي من إشباع حاجة المؤمن وتنفيس كربته وقضاء دينه ! ؟

فهل السعادة الحقيقية نجدها عند المنخدعين الظاهريين الذين يرون أن السعادة تكمن في اللهث وراء المال وجمعه وتحصيله من حلّ أو حرام ، أم نجد السعادة في هذه الأمور التي لخّصها رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث ؟! وتزيد الأمثلة الأمر وضوحاً ، إذ يروي ابن أبي الدنيا بسنده المتصل إلى سيدنا رسول الله ﷺ فيقول :

«ما أدخل رجل على المؤمن سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى ويوحده ، فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور ، فيقول له : أما تعرفني ؟ فيقول له : من أنت ؟ فيقول له : أنا السرور الذي أدخلتني على فلان ، أنا اليوم أؤانس وحشتك وألقّنك حجّتك وأثبّتك بالقول الثابت ، وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك إلى ربك وأريك منزلك في الجنة» .

فهل يوجد سعادة مثل هذه السعادة ؟ أن يكون السرور موصولاً إلى ما وراء الدنيا لينجي الإنسان من عذاب القبر ومن فتنه ، ثم ينتقل معه إلى أحداث يوم القيامة ليشفع له هناك وليوصله إلى الجنة ؟!

وهذا كله مشروط بأداء الخدمة للناس وإلا زالت النعمة وأصبحت نقمة ، وهذا الأمر أوصى به الإمام عليّ جابراً رضي الله عنهما بقوله :

يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء ، وإن لم يقم فيها بما يجب لله عرضها للزوال .

تلك هي حقائق يسردها الإسلام ليعلم الأتباع أين تكمن السعادة الحقيقية أما هناك فشيء مذهل ومخيف ، حيث تفيد الإحصائيات الموثوقة

- وسأكتفي بسرد بعضها دون تعليق أو مناقشة لما فيها من العبر والدروس - :

- يقول ديل كارنيجي : من الحقائق المعروفة أنه عندما تهبط قيمة الأسهم في البورصة ترتفع نسبة السكر في البول والدم بين المضاربين!!

- يقول د . هارولد سين هابين الطبيب بمستشفى مايو في أمريكا : لقد درست حالات (١٧٦) رجلاً من رجال الأعمال أعمارهم متجانسة في نحو الرابعة والأربعين ، فاتضّح لي أن أكثر من ثلث هؤلاء يعانون واحداً من ثلاثة أمراض تنشأ كلها عن توتر الأعصاب وهي : اضطراب القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم!!

- جاء في التقارير الصحية : لقد أثبت الإحصاء أن القلق هو القاتل (رقم ١) في أمريكا ، ففي خلال سني الحرب العالمية الأخيرة قُتل من أبناءنا نحو ثلث مليون مقاتل ، وفي خلال هذه الفترة نفسها قضى داء القلب على مليوني نسمة!

ومن هؤلاء الأخيرين مليون نسمة كان مرضهم ناشئاً عن القلق وتوتر الأعصاب .

وقلّما يمرض الزنوج في أمريكا أو الصينيون بأمراض القلب ، فهؤلاء أقوام يأخذون الحياة مأخذاً سهلاً ليناً ، وإنك لترى أن عدد الأطباء الذين يموتون بالسكتة القلبية يزيد عشرين ضعفاً على عدد الفلاحين الذين يموتون بالعلة نفسها!![1] .

أما كيف طبّق الصحابة الكرام هذه النظرية فالحديث عنها طويل ، من ذلك :

- أتى رجل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وكان معتكفاً في مسجد

---

(١) للتوسع يراجع جدد حياتك للشيخ محمد الغزالي.

رسول الله ﷺ فسلّم عليه وجلس ، فقال ابن عباس : يا فلان أراك مكتئباً حزيناً ، قال : نعم يا بن عم رسول الله لفلان عليّ حق ولاءٍ ، وحُرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه ، قال ابن عباس : أفلا أكلمه فيك ؟ فقال : إن أحببت .

فانتعل عبد الله بن عباس ثم خرج من المسجد ، فقال له الرجل : أنسيتَ ما كنت فيه ؟ قال : لا ، ولكني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ والعهد به قريب ـ فدمعت عيناه ـ وهو يقول : «**من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها ـ قضاها ـ كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد مما بين الخافقين**»[1] .

ـ وذاك الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ توقفه امرأة يقال لها خولة ـ وكان عمر يسير مع الناس ـ فوقف معها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه العجوز ؟ قال : ويحك! أتدري من هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تُقضى حاجتها!![2] .

ـ وذاك عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يدخل عليه ناس من أهل الكوفة فيسألهم : هل تَجَالسون ؟ قالوا : لا نترك ذلك ، قال : فهل تزاوَرون ؟ قالوا : نعم ، يا أبا عبد الرحمن ، إن الرجل منا ليفقد أخاه

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي والحاكم.

(٢) رواه البيهقي والدارمي، ومثله عند البخاري: (كنز العمال: ١/ ٢٦٨) والآية التي نزلت بها هي في سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

فيمشي على رجليه إلى آخر الكوفة حتى يلقاه ، قال : إنكم لن تزالوا بخير ما فعلتم ذلك[1] .

ويتشعّب من هذا الموضوع أمور كثيرة منها :

استنقاذ المسلم من أيدي الكفار ، وعدم ترويع المسلم ، وعدم سب المسلم ، وعدم احتقاره أو إغضابه أو لعنه أو غيبته أو التجسس عليه.

ويجب الستر على المسلم والصفح والعفو عنه ، بل تأويل أفعاله إن وُجد أنه مخطئ ، وكذلك يجب أن تفرح لفرح أخيك المسلم ، وعليك مداراته واسترضاؤه ، والاستغفار له إن أخطأ بحقك.

كذلك عليك زيارته ، وإكرامه إن زارك ، وعليك بإكرام الضيف كائناً من كان ، وتشييع جنازته ، الخ.

أما إكرام ضعفاء المسلمين وفقرائهم ، وأما إكرام الوالدين ، وأما الرحمة على الأولاد والتسوية بينهم ، وأما إكرام الجار والرفيق الصالح ، وإنزال الناس منازلهم ، وإكرام اليتيم ، وإجابة دعوة المسلم ، وإماطة الأذى عن طريقه ، وإكرام صديق أبيه ، وعيادة المريض ، وحب المسلم لله . . .[2] .

فتلك أمور ـ يطول شرحها ـ وكلها تدخل تحت خدمة الآخرين وتقديم النفع لهم مما يسبب السعادة الحقيقية في قلب الذي يقوم بهذه الأعمال ، كما وتعطي الإنسان الآخر المقدَّم له هذه الخدمات باباً من أبواب السعادة ، حيث يرى الآخرين يقفون إلى جانبه : يساعدونه ، يمدّون يد العون له ، ينفقون عليه . . فيزول من قلبه الحسد والحقد على الآخرين ، ووقتها يكون مستعداً للتضحية بالنفس ، أمام الآخرين ، وبذلك تصبح شبكة

---

(١) رواه الطبراني كما في الترغيب (٤/ ١٤٤).

(٢) للشرح والتوسع يراجع حياة الصحابة للكاندهلوي: ٢/ ٣٠١ـ٥٣٠.

المجتمع متلاحمة لا فرق فيها بين غني أو فقير ، وإلى ذلك أشار المصطفى صلوات الله عليه بقوله :

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] .

٢ـ السعادة الحقيقية تأتي بالبذل والإنفاق!!

حينما حضّ الإسلام الأتباع على البذل والإنفاق إنما هدف بذلك الوصول إلى نيل رضى الله تعالى ووقتها تتحقق السعادة الحقيقية ، كيف لا ؟ ولن تتحقق السعادة إلا لمن رضي الله تعالى عنه ، ذلك لأن رضى الله يُدخل الجنة . . من هذا الحضّ قوله تعالى :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

وقوله : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

بل يذهب البيان الإلهي إلى أبعد من ذلك ليؤكد أن النفقة ما هي إلا جهاد ينال بسببه الأجر كأجر الشهيد فيكون المنفق سعيداً في الدنيا والآخرة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠ـ١١] .

---

(١) رواه الطبراني عن النعمان بن بشير.

والإنفاق ـ كما رأينا ـ يطهر النفس وتصفو بسببه الروح وذلك من خلال كره البخل والشح والاكتناز ، ومن خلال أن الإنفاق يؤدي إلى زيادة بركة المال وتحصينه من الأخطار والنوازل[1] .

وبالتالي يشعر المنفق بالسعادة لأنها تؤدي إلى التكافل الإجتماعي بين أفراد المجتمع فلا جائع إلى جانب متخم ولا فقير إلى جانب غني.

بل إن الإسلام ليذهب إلى حد بعيد ، حيث يعتبر الكسب وطلب الحلال والزيادة في الإنفاق أنها أفضل من التفرغ للعبادة ، وذلك لأن منفعة ذلك أعم من نفع العبادة المحضة ، ودليلنا على ذلك قول المصطفى صلوات الله عليه :

«الجهاد عشرة أجزاء ، تسعة منها طلب الحلال»[2] .

والدليل العملي أن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ قد اشتغلوا بالكسب لينفقوا على أنفسهم وعلى غيرهم ، وكثيراً ما حضوا أصحابهم وأتباعهم على ذلك.

أما أن يتفلسف أناس باسم الزهد أو التصوف فيقولوا : يجب ترك الكسب وترك الإنفاق ، ويعلنوا أن الفقر أفضل فالردّ عليهم من كتب العلماء والفقهاء ، من ذلك ماجاء في كتاب الكسب للإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ صاحب الإمام أبي حنيفة رحمهما الله ـ : الغنى نعمة ، والفقر بؤس ونقمة ومحنة ، ولا يخفى على عاقل أن النعمة أفضل من النقمة والمحنة ، والدليل عليه أن الله تعالى سمى المال فضلاً ، فقال عز وجل : ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة : ١٠] .

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتابنا: المسيرة التاريخية لتطبيق الزكاة.

(٢) كنز العمال: ٦/٤ وللحديث روايات أخرى.

وما هو فضل الله فهو أعلى الدرجات ، وسمّى المال خيراً ، فقال عز وجل :

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

وهذا اللفظ يدل على أنه خير من ضده ، وقال الله تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ [سبأ : ١٠] .

يعني المال والملك ، حتى روي أنه كانت له ـ عليه السلام ـ مائة سرية ، فمنّ الله بذلك عليه وسمّاه فضلاً منه ، وسليمان صلوات الله عليه سأل الله تعالى ذلك فقال :

﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

ولا يظن بأحد من الرسل أنه سأل الله الدرجة الأدنى دون الدرجة العليا ، والدليل عليه أن النبي ﷺ قال : «**الأيدي ثلاثة : يد الله ، ثم اليد المعطيه ، ثم اليد المعطاة فهي السفلى إلى يوم القيامة**»[1] .

وقد جسد الرعيل الأول من الصحابة الأماجد ذلك تجسيداً عملياً ، إلى درجة أن التاريخ سطر لنا روائع من حياتهم وكيف أنفقوا في السلم والحرب ، وقد تحدثت في جانب منها في الباب السادس ، الفصل الثالث من هذا الكتاب ونضيف إلى ذلك بعضاً منها :

● روي أن أعرابياً أتى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال :

يا عمر الخير جُزيت الجنة ... اكسُ بنيّاتي وأُمَّهِنَّهْ
وكن لنا من الزمان جُنّهْ ... أقسم بالله . . لتفعلنّه

فقال عمر : إن لم أفعل يكون ماذا ؟

---

(١) الكسب : للإمام محمد بن الحسن الشيباني : ٥٠ـ٥١ ، والحديث رواه الطبراني .

قال الأعرابي : إذاً أبا حفصٍ لأذهبنّه!

فقال عمر : وإذا ذهبت يكون ماذا ؟

فقال الأعرابي :

يكــون عــن حــالــي لتُســألنّــه ... يــوم تكــون الأُعطيــات هنّــه
ومــوقــف المســؤول بينهنّــه ... إمــا إلــى نــارٍ وإمــا جنّــة

قال : فبكى عمر ـ رضوان الله عليه ـ حتى خضبت لحيته ، وقال :

يا غلام ، أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لِشعره ، أنا والله لا أملك غيره[1] .

إنه أراد أن يشتري الجنة ويدفع عنه النار ـ وهذه قمّة السعادة الحقيقية عن طريق إنفاقه ـ ولو بالقليل ـ ما يملك.

● جاء رجل من أهل الشام فقال : دلّوني على صفوان بن سليم ، فإني رأيته دخل الجنة ، فقلت : بأي شيء ؟ قالوا : بقميصٍ كساه إنساناً .

فسُئل صفوان عن قصة القميص ، فقال : خرجت من المسجد في ليلةٍ باردة ، وإذا برجل عارٍ فنزعت قميصي فكسوته!![2] .

إن صفوان هنا عاش السعادة الحقيقية عن طريق إنفاقه ما يملك ـ ولو كان قميصاً يلبسه ـ لكنه الإيثار الذي يفعل الأعاجيب ، فنال بذلك رضى الله تعالى فأدخله الله الجنة.

● بل وصلت هذه الصفة ـ الإنفاق ـ عند الصحابة والتابعين ومن سار على دربهم إلى حد عجيب حتى أن ابن قتيبة حدثنا حديثاً من ذلك[3] .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي: ١٢٨.
(٢) أحسن المحاسن لأبي اسحاق الرّقي: ١٧٩.
(٣) عيون الأخبار: ٣/ ١٧٥.

قال المأمون لمحمد بن عبّاد المهلّبي : أنت متلاف :

فقال : يا أمير المؤمنين ، منع الموجود سوء ظن بالله ، والله هو القائل :

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

● وفي قصة غزوة تبوك التي أوردها ابن عساكر : ١/ ١٠٥ وفي كنز العمال ١/ ٢٤٩ وفي حياة الصحابة ١/ ٤١٧.. تبرّع فيها عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية.. وتصدّق فيها عمر بن الخطاب بمائة أوقية وتصدق عاصم بن عدي الأنصاري بستين وسقاً من تمر.. وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش ، لذلك جاء المدح والدعاء له من سيدنا رسول الله ﷺ فبلغ بذلك سعادةً لم يبلغها أحد :

«ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا» .

● إنها السعادة الحقيقية التي يعيشها المسلم ، وذلك حين يجعل قسماً من ماله في سبيل الله ، سواءً كان في الجهاد أو الإنفاق على عباد الله المستحقين لذلك ، ولم يترك رسول الله ﷺ مناسبةً إلا استغلّها ، ليعلم الناس المعنى ذلك فيروي أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه فيقول : جاء رجل بناقة مخطومة[1] فقال : هذه في سبيل الله يارسول الله ، فقال الرسول ﷺ :

«لك بها يوم القيامة سبع مائة ناقة ، كلها مخطومة»[2] .

● وعن قيس بن سلْع الأنصاري رضي الله عنه أن إخوته شكوه إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنه يبذّر أمواله وينبسط فيها .

---

(١) خطمت البعير: إذا كويته خطاً من الأنف إلى حد خديه.

(٢) رواه مسلم (٢/ ٣٧) وأخرج مثله النسائي.

قلت ـ قيس ـ : يارسول الله ، آخذ نصيبي من التمر ، فأنفقه في سبيل الله وعلى من صحبني ، فضرب رسول الله صدره وقال :

«أنفق ينفق الله عليك ـ ثلاث مرات» .

فلما كان بعد ذلك خرجت في سبيل الله ومعي راحلة ، وأنا أكثر أهل بيتي وأيسره[1] .

● ونكتفي أخيراً بقول المصطفى صلوات الله عليه في ذلك :

«من أرسل نفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبع مائة درهم ، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم سبع مائة ألف درهم» ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

وفي رواية أخرى للطبراني عن معاذ بن جبل :

فإذا غزوا وأنفقوا خبّأ الله لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عنه علم العباد ووصفهم ، فأولئك حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون.

فهل هناك سعادة أعلى من هذه السعادة التي ينالها المنفق في سبيل الله حيث الأضعاف المضاعفة من الحسنات والدرجات العليا في الجنان التي أعدّها الله للمنفقين. . . اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

٣ـ تتحقق هذه السعادة بثلاث مراتب!!

بشكل إجمالي فالطريق إلى السعادة الحقيقية وتحصيلها يكون بالتشبه بالنهج النبوي ، والسيّر على الطريق الذي سار عليه صفوة خلق الله وهم

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ٣/ ٢٥٠، والترغيب: ٢/ ١٧٣ وقد أخرجه الطبراني في الأوسط، ومثله مختصراً عند البخاري. .

الأنبياء عليهم السلام ، ولا وصول إلى تلك السعادة إلا بانتهاج دربهم ، واحتذاء خطاهم ، وتمثل إرشاداتهم ، ومن هنا نعلم لماذا أرسل الله هذا الحشد الهائل من الأنبياء منذ أرسل آدم ـ عليه السلام ـ وحتى خاتمهم أشرف الخلق رسول الله ﷺ ، وهذه المراتب هي :

أ ـ الإيمان بالله والأنبياء والكتب المنزلة عليهم :

ولا سعادة لمن خالف هؤلاء وسار على عكس دربهم ، ولمزيد من المعلومات نقول أن هذا الإيمان له درجات أولها : درجة الإسلام (في الصدر) ، وأعلى منه درجة الإيمان (في القلب) والأعلى الإحسان (الروح) وهنا يصبح الإنسان في درجة الولاية (التقرب إلى الله) أرأيت إلى هذا الحوار الجميل بين النبي الأعظم وبين الصحابي حارثة ؟

المصطفى : يا حارثة كيف تمضي الليل حتى الصباح ؟ أو : كيف أصبحت يا حارثة ؟

حارثة : يارسول الله أصبحت مؤمناً حقاً .

المصطفى : لكل شيء حقيقة ، فما هي حقيقة إيمانك ؟

حارثة : عزفت نفسي عن الدنيا ، فقطعت علاقتي بها ، لذلك أمضيت ليلي ساهراً يقظاً ، وأوصلت نهاري بليلي وأنا عطشان ، وصار عندي الذهب والخشب والحجارة والمجوهرات والحلي والطين كلها في درجة واحدة!!

وبلغت درجة تراءى لي فيها بأنني أتصور نفسي قريباً من عرش الله تعالى وتخيّلت أنني أرى كل أمة في يوم القيامة ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة وهم يتزاورون فيما بينهم ، وكأني أنظر إلى أهل النار كالكلاب يصرخون.

المصطفى : يا حارثة ، عرفت فالزم ـ وفي رواية ـ : لقد أدركت حقيقة الإيمان فاستقم على ذلك.

قال أهل العرفان : لقد بلغ حارثة مرتبة الإحسان التي قال عنها المصطفى صلوات الله عليه :

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك» .

وهذا تفسير لقول الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ عندما سأله سائل :

يا إمام هل رأيت ربك ؟

أجاب : وكيف أعبد رباً لا أراه! ثم قال معلقاً على ذلك ـ وهذه هي درجة الإحسان بل القرب إلى الله أكثر وأكثر ـ الولاية ـ :

لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً!!

ب ـ تتحقق السعادة بتزكية النفس :

ويتحقق ذلك بانتهاج طريق الأنبياء والرسل والأولياء والمصلحين ، والأخذ بتوجيهاتهم وتعليماتهم ، وعندها يتحرر العقل من الأوهام ، ويستنير بأنوار الهداية فيرتقي الإنسان إلى مراتب المعرفة ، كما قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وعندما تزكو النفس وتصفو الروح ويتقرب الإنسان من خالقه ـ عز وجل ـ ينال شرفاً وسعادةً ما بعدها سعادة ، إنه يصبح ذو قلبٍ تتجلّى فيه أسرار الإله ، وتنعكس فيه أنوار السماء ، فيرتفع الإنسان من طينيته وحيوانيته ليعلو على الملائكة المقربين ، إنها السعادة التي تحول الإنسان من تراب إلى ذهب فيتلألأ بالنور مثلما تحوّل الكيمياء الفلزات الرخيصة إلى ذهب ثمين!!

ج ـ معرفة النفس تحقق السعادة :

من عرف نفسه عرف الله تعالى ، ومن ثم عرف الكون المحيط به ، وعندها يصل إلى السعادة الحقيقية ، لذلك وجه القرآن الكريم الناس إلى آيات الآفاق وربطها مع آيات الأنفس ليعلمنا أن معرفة الله ومعرفة الكون ومعرفة النفس مرتبط بعضها ببعض : كل ما يملكه الأخيار في هذا العالم تملكه أنت لوحدك!! إذاً بهذه المراتب التي تجمع في كلمةٍ واحدة هي العبودية لله تتحقق السعادة ، ولذلك قال العارفون بالله : إن خاتمة هذا الطريق تكون في محبة الحق ، ومعرفة الحق ، وعبادة الحق ، والنهاية هي في ترك التعلق والارتفاع إلى التخلّق وبلوغ مقام التحقق ، والعبور من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين والوصول إلى حق اليقين. . الوصول إلى مقام المحبة والفناء في المحبوب.

لذلك جاء التاريخ مخبراً عن ذلك في سيرة الأصحاب والأتباع : فهذا لا يجد ما يأكل ثم تراه يقول : إننا نعيش في سعادةٍ لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف!! وذلك يرى الموت أمامه ثم تراه يقول بأعلى صوته فزت ورب الكعبة!! وذاك العالم المسلم ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يدخل السجن في قلعة دمشق فماذا قال عندها ؟!

فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فجنتي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة!!

إذن السعادة المنبعثة من الإيمان وتزكية النفس ومعرفة النفس جعلت المحنة تتحول إلى منحة عظيمة وإلى نعمة جليلة ، إنه ينظر إلى السجن فلا يرى أنه يستطيع أن يشكر الله على ذلك!!

لذلك راح يعطي الخطوط العريضة التي تترجم جميع ما قلناه في أن السعادة تأتي من التمسك بالإسلام لا من تراكم الأموال :

المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه!!

إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل الجنة الآخرة!!

لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة!![1] .

فهل هناك من كيمياء تحوّل الأشياء إلى ذهب مثلما يحول الإسلام النقم والمصائب إلى سعادة حقيقية! ؟

* * *

(١) للتوسع عن ترجمة حياته يراجع مقدمة كتابنا مكارم الأخلاق عند ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.